موت صاحب الجواد

اليوم مات العم ابراهيم !

فى البداية ، قالوا عنه أنه مات موتا عاديا ، غير أنني كنت أبعد ما أكون عن تصديق مثل هذه الاقاويل . الحقيقة هي أنه سقط فى الدرج سقطة عنيفة ، وراح فى غيبوبة دائمة لم يفصل بشأنها الا رأى الطبيب القاطع : « نزيف مفاجيء فى الدماغ » . كنت أود أن أراه وهو فى النزع الاخير ، فقد قال لي مرارا انه سيموت ميتة الجياد اذا ما حان أجله . ولم يقدر لي الى يومنا هذا أن أرى جوادا يموت ، لذلك تظل هذه المقارنة على أشد ما تكون غرابة وغموضا فى نفسي .

لو تقصينا الامور معا لوجدنا أن العم ابراهيم مات قبل هذا اليوم بسنوات عديدة . فمنذ أن صدر القرار بمنع عربات الجياد من العمل فى طرقات العاصمة شعر بأن زمنه ولى الى غير رجعة لذلك عمد الى بيع حصانه بثمن بخس فى سوق الحيوانات ، أما العربة الضخمة فلا أحد يدري شيئا عن مصيرها حتى الان لانه لم يحدثنا عنها لا فى الحي ولا فى أي مكان آخر ، بل ان ولديه ظلا فى ريبة من أمر تلك العربة الشاحنة كما كان يروق له أن يسميها . وفى ظرف أسابيع قليلة انكمش العم ابراهيم

على نفسه . وهذا أمر طبيعي فيما أظن ، لانه بحكم السن التي بلغها ، لم يكن يطمع فى الحصول على عمل يرتزق منه ، خصوصا وأنه كان يأنف أن يصير عالة على ولديه . الا أن وضعه ذاك ما كان ليدوم طويلا نظرا لما كان يعتمل فى نفسه ، فقد فوجئنا به ذات يوم وهو يقرر استخراج رخصة السياقة لانه كان قد اشترى شاحنة قديمة صغيرة ، وقر رأيه على أن يتأقلم مع الاوضاع الجديدة . وأمام هذا الانقلاب المفاجىء فى نفسية العم ابراهيم لم نجد بدا من مسايرة الامور على تواترها ، بل انه لم يدر بخلد أي واحد منا أن صاحبنا هذا قد يعجز عن نيل مراده . ولعل حسناً ذاك راجع الى أنه كان قد تخلى عن انكماشه ، وعاد الى مرحه ، لا يكاد يتحدث معنا الا وقذفنا بنكتة عن الجياد وعن الغجر الذين كانوا متخصصين فى بيعها وشرائها فيما مضى من الزمن غير انه فى واقع الامر كان فى النزع الاخير ، وهذه حقيقة غابت عنا بعض الوقت غيابا تاما . لقد فوجيء العم ابراهيم بأنه لن يفهم شيئا من أمر تلك العلامات التي كان يعرضها عليه مدرب السياقة ، وأحس بثقل هذه الهزيمة النكراء ، فرحل عن الحي مع ولديه وغاب عنا خبره وقتا طويلا .

فى الحقيقة ، لم يكن العم ابراهيم راضيا عن سلوك ولديه . كان الاكبر ذا حول « بفتح الواو » ظاهر ، مولعا بالحيوانات حد الهوس ، وخبيرا فى المقالب الكلامية . وما أكثر ما كان يصدر تعليقاته الجارحة عن أبيه وأمه . فالاب كان بمثابة الكاردينال فى نظره أما الام فكانت عبارة عن الاخت المسيحية الطيبة ، وكان الاصغر سكيرا بارعا فى سرقة السيارات ، لا يكاد يخرج من دار الشرطة الا ليدخلها ثانية بتهمة أخرى . وبلغتنا الاخبار أن العم ابراهيم توصل الى اتفاق مع ولديه . فقد كون ما يشبه شركة صغيرة تضم ثلاثة أعوان . كان هو المسير بطبيعة الامر لانه صاحب الشاحنة ، على

أن يتناوب ولداه سياقتها للارتزاق بها ، وينال ثلاثتهما حصصا متعادلة فى نهاية كل يوم .

وسارت الامور فى البداية على ما يرام ، أو هكذا خيل الينا جميعا . لان العم ابراهيم صار يختلف الى الحي من حين لاخر دون أن تصدر عنه أية شكوى ، وان هي الا أيام قليلة حتى انفض الابن الاصغر عن الشركة ، وآثر العمل وحده ، ولم يقل العم ابراهيم كلمة واحدة بشأنه ، فعلى الرغم من استيائه الظاهر ، كان يكن له كل الحب . لقد أفضى لاصحابه من الشيوخ بأن ولده ذاك يعيد اليه صورة شبابه فيما بين الحربين العالميتين ، أيام كان ينطلق بعربته الشاحنة فى أرباض المدينة صحبة زجاجة من الخمر ولا يعود الى الدار الا وقد تعتعه السكر . ولم يؤثر موقف الابن الاصغر على مصير الشركة ، بل ان الابن الاكبر وجد الفرصة سانحة لجمع أكبر حصة من المال لانه كان يستعد للزواج وصارت الارباح مناصفة بينه وبين أبيه . وما أكثر ما كان يغامر بالشاحنة فى أطراف المدينة . كان ينقل عليها كل أنواع السلع ، حتى صناديق الزبالة .

وحدث ذات يوم ما لم يكن فى الحسبان ، لست أذكر الاسباب بالضبط وان كنت أدري بأن وضعية المهاجرين فى فرنسا كانت وراء كل شيء ، فقد تواترت الينا الاخبار بأن عددا من المهاجرين لقوا مصرعهم فى احدى المدن الفرنسية اثر مجابهة مع بعض العنصريين . قد تتساءلون عن العلاقة بين العم ابراهيم وتلك الاحداث غير انني أعجز ما أكون عن تقديم الجواب ، اللهم سوى ما قاله العم ابراهيم نفسه فى هذا الشأن : « الحكومة والزمن يقفان ضدى . » ويجب أن تعلموا أن الزمن فى مفهوم العم ابراهيم ليس يعني سوى الناس وهم ينتقلون من طور الى آخر . الحقيقة اذن هي أنه كان كعادته مع ابنه الاكبر فى ضواحي الميناء ينتظران

التفريغ حتى يأخذا الحمولة وينطلقا بها نحو أعالي المدينة . واذا بجمع من المتظاهرين يسدون الطريق العريضة فجأة وهم يصرخون وينادون بسقوط العنصرية ، وعودة المهاجرين الى ديارهم . ولم يخطر للعم ابراهيم أن الزوبعة قد تسحقه ، لذلك استند مع ولده الى أحد الجدران ، غير بعيد عن الشاحنة ، وجعل يتأمل المشهد . وفى تلك اللحظات بالذات أوقف المتظاهرون سيارة لاحد الاوربيين وحطموها وكادوا يقتلون صاحبها لولا تدخل بعض رجال الجمرك . ويبدو أن هذه الفعلة ألهبت نفوسهم ، لذلك راحوا يهاجمون كل السيارات الواقفة منها والمتحركة ، لا يلوون فى ذلك على شيء ، ولا يفرقون بين سيارات مواطنيهم وسيارات الاوربيين . وحدس العم ابراهيم بأن دوره قادم لا محالة فتراجع عن الجدار دون أن يخطر على باله أن يطلب من ولده زحزحة الشاحنة والانطلاق بها . وان هي الا لحظات حتى كان المتظاهرون يجهزون على شاحنته بقطع من الحديد ويشعلون النيران فيها وفى بقية السيارات التي كانت واقفة الى جوارها . الغريب فى الامر أن العم ابراهيم لم يقل شيئا بل ظل جامدا مع ولده ، والعهدة فى كل ذلك تقع عليه بطبيعة الامر . وأنى لنا نكذبه وقد عقدنا المقارنة فى الحي بين أقواله وأقوال ولده ؟

فى عشية ذلك اليوم ، عاد العم ابراهيم الى الحي فروى لنا ما حدث ولعله آثر أن يعرج على مرافق شبابه وكهولته قبل أن يدخل داره ولا يخرج منها الا محمولا على النعش . وخطر لنا أن نجمع له بعض المال عسى أن نخفف عنه أثر الصدمة ، غير أننا طردنا شر طردة . لاننا لم نكن فى نظره الا مصاحبين للزمن ، وأنتم تعلمون فلسفته فى هذا المجال .

أعترف لكم أنني خادعته قبل أشهر قليلة ، فأخذت له صورة فى عقر داره . ظننت أنه سيشتمني ، غير أنني فوجئت به يحدثني عن الشبه بينه

وبين الجياد . وأدركت لتوى أنه فقد التحكم فى عقله ثم انه وصف لي ميتة الجياد وكيف تلوي أعناقها فى الهواء قبل أن تلفظ النفس الاخير . لذلك لم أجد اليوم بدا من تخيله وهو يحتضر ، ويضرب الهواء بقدميه فى حركة دائرية . الشيء الوحيد الذي لم يحدثني عنه العم ابراهيم هو طريقة دفن الجياد ، مع أنه سبق له أن دفن جوادا خلال الحرب العالمية الثانية بعد أن نفق من جراء العياء . أتمنى الا يزعم ولده الاكبر ذات يوم بأنه يشبه الشاحنات ، فقد يخفى عليه آخر الامر أن يضع اللمسة الاخيرة لهذيانه وتغيب عنه كيفية دفن الشاحنات المتهالكة .

لقد نسيت أن أقول بأن العم ابراهيم كان ساخطا على قارئات الكف ، لانهن كن عاجزات عن التنبؤ بزوال دولة الجياد ، وهذا ما جعله يفقد الثقة فى كل شيء ويضرب فيما بقى له من عمره على غير هدى .

1977